مداخلة بلال خبيز

منذ سنوات ليست بقليلة العدد، اخذت الاحظ ان احكامي على القصيدة الجديدة تميل اكثر فأكثر نحو ان تصير اقل قسوة مما كانت عليه من قبل. وان ما كنت اعتبره لسنوات خلت غير مقبول على الإطلاق، اصبح اليوم مقبولاً بل وفي احيان كثيرة مرغوباً وممتعاً، إذا ما اعتبرنا مراقبة الضعف والحيرة التي تعتري الآخرين متعة على وجه من الوجوه. هذا الميل نحو اللين يفترض في مقلبه الآخر، انني لم اعد اتطلب من القصيدة الجديدة ما ليس في مكنتها، وما لا تستطيع تقديمه. والحق انني سرعان ما انتبهت إلى ان احكامي القاسية، وتطلبي الابرز اخذ يتجه نحو التحليل والنقد اكثر مما يتجه نحو القصيدة، التي يقول فيها بول شاوول شاعرنا الكبير، انها تولد وتموت ضعيفة، إذا ما تسنى لها الموت. ثم انني ايضاً لم البث، ومنذ زمن ليس ببعيد ان اخذت اشفق على النقاد والمحللين والصحافيين من احكامي التي بدت لي جائرة على حين غرة، وجعلت افكر في ان العلة التي يجب ان اوجه قسوتي نحو اسبابها تنمو ويقسو عودها في مكان آخر. كنت احسب لسنة خلت على ابعد تقدير ان في وسع الكلمة الثاقبة ان تفعل فعلها في الاجتماع والسياسة والسلوك اليومي. لكنني وانا اراقب الجماهير الغفيرة التي تتقلب بين الاتجاهات والشعارات، وتلك التي تستعد لأن تبذل الدم من اجل قائل لا إله إلا الله، كما لو انه في قوله هذا انما يقول شيئاً فريداً لم يسبقه إليه احد.(ليس الأمر متعلقاً بتوحد الإله او الشرك به، بل بكون هذا الامر يفترض ان يكون من البديهيات التي يجدر بالمؤمنين ان يكونوا متيقنين منها ليتسنى لهم ان يلتفتوا إلى سبل تأمين حياة كريمة وعيش مستقر). وبكلام اقل اشكالية واكثر وضوحاً في مقصده، اريد القول: ان ما قرأته وما عشته واختبرته لا يعينني في فهم كيف يكون مئات الألوف من الناس مستعدين لبذل الدم في هذا اليوم من اجل خروج الجيش السوري من البلاد ثم وبسحر ساحر ينقلبون على اعقابهم ويستعدون مجدداً لبذل الدم من اجل حماية التدخل السوري في الشؤون اللبنانية. اقول هذا لا لأدخل الناس في متاهات السياسة وتشابكاتها المعقدة، وهي معقدة لأنها لا تستند في ما يظهر إلى المنطق الذي يحكم معظم المشتغلين بالثقافة، بل لتوضيح فكرة مفادها، ان الكلمة، التي كان الخلق في البدء صفتها، لم تعد تستطيع ان تخلق و لم تعد تستطيع ان تعترض او تغير او تقيم عزاً لأصحابها، او تدمر مجد اعدائها. قد يجوز خلاف هذا الذي ذكرت وقد يصح فيما لو افترضنا ان ما نقرأه من تواريخ وقصص لم يكن من مواليد السلطات الغاشمة، والتي هي غاشمة بمعنى

انها لا تفقه ولا تقيم للحجة وزناً ولا للتبرير اعتباراً وهذه كلها من نشاطات اللسان ومن بعض ما يحسنه حصراً وعلى نحو محدد.

والحال على نحو ما اخذتني الرأفة بالقصيدة منذ سنوات بدأت ارأف بالكلمة عموماً وبالمنطق السليم على وجه التحديد. -هذه تحية لجبران تويني وسمير قصير، فهما حتى استشهادهما رأيا في القول والخطاب والمنطق سبباً كافياً ليموت المرء من أجلها.

ولأن الشهداء يقيمون بيننا على نحو لا نستطيع الفكاك منه، احسب ان مدخلي لنقاش افاق قصيدة النثر واحتمالاتها يبدأ من الموت نفسه. هو يبدأ من شعورنا العارم بالحزن، في هذه الازمنة بالذات، وبعض القصائد التي كتبت في وداع الذين ماتوا وما كانوا يريدون الموت، اتخذت من العجز عن الفعل والتأثير سبباً للكتابة. وارجح الظن ان من يريد العودة إلى تلك الكلمات التي كتبت في من فقدناهم، على غير رغبة منا ومنهم على حد سواء، سيجد في هذا العجز ما يقيم اود الكلام برمته.

كان ميشال ابو جودة يقول انه لو تسنى للصحافي ان يكتب مقالاً في قاتله فسيظل يكتب ضد قاتله، واحسب ان الأصح انه سيكتب ما كان يريد ان يكتبه من قبل، وكان ميشال شيحا، وهو صانع من صناع السياسة اللبنانية، يقول وهو يلاحظ الأوضاع من حوله عاجزاً وواقعاً في الحيرة: احياناً يكتب المرء للأشجار الكبيرة، للريح.

اليس يقع هذا الكلام في الشعر؟

من نافل القول ان تحرر قصيدة النثر من النظم والشكل اوقعها في غابة من الأسئلة. ليست الأسئلة تلك التي تشكك بشاعريتها، فهذا امر لا اعيره الكثير من اهتمامي، وليأخذ الناظمون صفة الشعر لما يكتبونه إلى بيوتهم الشعرية، وليطلقوا على هذه القصيدة المنثورة ما يريدون من تسميات فلست كثير الإهتمام في حيازة هذا العرش الإسمي والانتساب إلى مملكته. الأسئلة الجوهرية التي ارى انها تواجهني شاعراً وقارئاً تقع في سياقين اثنين:

السياق الأول يتعلق بمدى قدرة هذه القصيدة ان تحتل موقعاً مهماً في غابة خطابات السلطات المتنوعة.

السياق الثاني يتعلق بمدى قدرة هذه القصيدة من جهة أخرى ان تستمر مربوطة إلى قيد المكان الذي تأتي منه.

في السياق الأول اود ان الاحظ، وهذا امر يجدر نقاشه بدقة متناهية، فلست املك اجوبة جاهزة ولا قناعات راسخة، ان القصائد التي تسنى لي ان اعجب بها في السنوات الاخيرة كانت تنتمي بمعنى من المعاني إلى ضرب من ادعاء الوهن والعجز في اصل بنيتها المعنوية. كانت القصائد، ضعيفة، بالمعنى الذي يجعلها تشبه في بنيتها الحقيقية بوحاً يطلق لمرة واحدة. من منكم يتذكر فيلم الرجل الفيل لدافيد لنش؟ في هذا الفيلم، تلاحق زمرة من الرجال الرجل الفيل، وحين يجد نفسه محشوراً بين الجدار والزمرة التي تلاحقه، يلتفت، ويسفر عن وجهه ويقول: انا انسان. يقول ذلك بما يشبه بوح الرجل لإمرأة بأنه يحبها. يبوح لأنه لم يعد يجد حيلاً كافية لإطالة تواجده معها، فيطلق بوحه بوصفه طلقته الاخيرة. في هذه اللحظة على من يبوح ان ينتظر الحكم. فإما ان تؤمن الزمرة التي تلاحق الرجل الفيل بأنه انسان فتكف عن ملاحقته وتهديده، وإما لا تقيم للعبارة وزناً فتصرف النظر عن الكلام الذي قاله والكلام الذي يمكن ان يقوله وتقتله كما يقتل الاسد فريسته، من دون ان يقيم وزناً لخطابها، بخلاف ما يرى كاظم جهاد في قصيدته الرائعة "هزيمة النسر" التي تصدر ضمن مجموعة قريباً عن دار الجمل. وفي الحالين يكون الرجل الفيل قد اطلق سلاحه الأخير وأخذ ينتظر حكم الآخرين عليه.

ربما يجدر بنا ان نرفق هذا المثال، بمثال آخر، كان لبنانياً بامتياز: ففي عام ١٩٦٥ نشرت مجلة اوروبية فيلماً من اربع صور لواقعة طريفة بطلاها غزال صغير وكلب دانماركي من الكلاب المتوحشة. في الصورة الاولى نرى الغزال هارباً من الوحش راكضاً بأقصى سرعته، في الصورة الثانية نرى الكلب قد اخذ يقترب من الغزال، وفي الصورة الثالثة نجد الغزال وقد واجه جداراً عالياً لا يستطيع القفز فوقه والكلب وراءه تماماً، اما في الصورة الرابعة، فنرى الغزال قد استدار نحو الكلب وهجم عليه فما كان من الكلب إلا ان ولى هارباً بأقصى ما يستطيع من سرعة. على هذه الواقعة كتب ميشال ابو جودة مقالة في تحليل سياسة الرئيس شارل حلو في العام ١٩٦٨ وكان عنوانها "اوعا الغزال".

احسب ان القصيدة الحديثة تقف امام الجدار العالي الذي واجه الرجل الفيل والغزال معاً، لكنها في معنى من المعاني تؤثر البوح على الهجوم، وتؤثر ان يحكم عليها على ان تحكم على الآخرين. وفي هذا المعنى فهي تجهد في ان تقع في موقع الضحية. وهذا الموقع بالذات هو ضرب من ضروب السلطات الحديثة ويملك خطاباً متماسكاً يجدر بنا أخذه في الاعتبار. لكن ما يجري اليوم، وامام الموت الذي يصيب الصحافيين والمفكرين واهل الثقافة، يمكننا ان نتخيل نهاية اخرى لبوح الرجل الفيل. باح الرجل الفيل بكونه انساناً وانتظر ان يعفى عنه، لكن الزمرة في ما يبدو قتلته في حالتنا اللبنانية

والعربية، وحين يقتل الرجل الفيل، فإنما نقتل معه كل الكلام الذي كان يمكن له ان يقوله في ما بعد، وتتقلص مساحة الكلمة بموت واحد من اصحابها في غير أوانه. اليس هذا ما اصاب سمير قصير وجبران تويني؟

نعود إلى القصيدة: حين تنتحي القصيدة جانباً وتشرع في بوح ينتظر اعترافاً نقدياً او سياسياً او ثقافياً او حتى اعترافاً بهامش اجتماعي خافت النبرة ومستكين، فإن اقصى ما تطمح إليه، يكون والحال هذه، ان تقع في موقع من يجهد في ان يفسح الطريق امام جرافات السلطات الاخرى المقرقعة في اذن العالم العربي عموماً. تفسح القصيدة مكاناً وسيعاً لشتى انواع الضجيج، وتقبع في نهاية الأمر في المكان الذي يجعلها غير مرئية تماماً، بل وان نجحت في ان تكون مرئية، فإنها تجهد في جر الكلمة معها نحو المواقع التي لا تؤثر في ما يجري او يدار. هذه الجماهير الجاهزة التي تتقلب بين الشعارات بأسرع مما تطرف عين متعبة، تريد ان تضع الكلمة على الرف.

في مجال آخر، في وسع القصيدة وهي تحث الخطى نحو تأسيس موقع الضحية وترتيب اعمدة سلطانها في هذه المملكة، وقد تنجح في ذلك، ولو حصل ان نجحت فإنها تستطيع ان تتخشب على نحو لا علاج بعده. فما ان نقع في موقع الضحية، حتى يقيم الكلام مجداً للشهداء. وما ان يقام مجد الشهداء حتى يعفى الاحياء من التأثير. القصيدة الحديثة تمجد الشهداء، لأن الإقامة في قلعة الموت سبب للمجد الذي لا ترقى إليه الجماهير. وبكلام آخر خروج من الوقائع الحية نحو المتعالي والمترفع، وكتابة للأشجار الكبيرة، والريح. عفواً من ميشال شيحا مرة أخرى.

في السياق الثاني: احسب ان شطراً لا يستهان به من قصيدة النثر اليوم مصاب بنعمة النجوم. واول شروط تكون النجم، كما حددها لنا ادغار موران، ان يقيم في عالم هو غير العالم الواقعي. عالم مكيف ومضبوط الحرارة كذاك الذي تقيم فيه هيفا وهبي في كلياتها الغنائية، عالم يمكنه ان يكون في أي بقعة في العالم، شروطه الوحيدة ان يكون متنعماً بالسلم والكهرباء والماء وشبكة الاتصالات اللازمة، وبطاقات الإئتمان. والحال يمكن ان يكون هذا العالم في فندق فينيسيا او في مراكش او في افغانستان سواء بسواء. هذه العاهة التي تنعم بها هيفا وهبي هي عاهة تصيب الشعراء. لنفكر قليلاً في حالنا كلبنانيين: نحن خضنا حرباً دامية كلفتنا اكثر من مئة الف قتيل وعشرات الألوف من المصابين والجرحى وبعضهم مصاب بعاهات دائمة، وفي بلد لا يتجاوز تعداد سكانه الأربعة ملايين، لأسباب شتى، إذ انه بهذا المعنى يشبه الفندق الذي يتسع لعدد محدد من النزلاء، يشكل وجود عشرات الالوف

من المشوهين جسدياً والمصابين بعاهات دائمة نسبة لا بأس بها من اللبنانيين. لكن حبيبات الشعراء دائماً يشبهن آفا غاردنر، بل ولا يخجل الشعراء من القول ان ما ان تغمض الحبيبة عينيها حتى يتوقف الزمن عن الجريان. والحق انني لا اشك ان مدينة بيروت تزخر بالجميلات كما لا تفعل مدينة أخرى، لكنني اتساءل ان كن هاته الجميلات هم حقاً حبيبات الشعراء. هذه ايضاً تحية لمي شدياق!

اكثر من ذلك: بعض نقد القصيدة النثرية لا يدلنا على موضع او مكان. دائماً يحلق في الفضاء، حيث الزرقة لامعة ومبهرة، وحيث الهواء نقي ومنعش، دائماً نقرأ ولا نفهم، اين يقيم هؤلاء بالضبط؟ وهل يعانون مثلنا من سوء الحظ الذي يجعلهم يبحثون يومياً عن من يستدينون منه ليكملوا عيشهم في الصمت والوحشة؟ دائماً نسأل، ولأن احداً لم يجب حتى الآن على هذه الهمهمة المتصاعدة، لم يعد ثمة من يقرأ نقداً في اي مكان. انظروا إلى صفحاتنا الثقافية، واعتذر منكم سلفاً فأنا واحد من مسؤوليها، من منكم يذكر ما خلص إليه عقل العويط في كتابته عن محمد الماغوط؟ احسب ان قليلين من شعرائنا والمجتمعين هنا يذكرون الخلاصات، لكن الكثيرين منكم يذكرون ما كتبه عباس بيضون عن الجنرال عون. واجزم ان كثيرين منكم يذكرون رسالة عقل العويط إلى الله، وهذا كله يقع في شأن غير شؤون القصيدة. الامر لا يتعلق بانصراف القراء عن الشعر واهتمامهم بالسياسة. هذه مسألة فيها نظر، لكن هذه المسألة لا تعفينا من طرح السؤال: اين يقيم الشعراء ونقادهم، حتى لا اقول اين يقيم الفنانون ونقادهم؟

مثل هذا السعي الحثيث نحو تقليد النجوم، يجعل من الشعر مادة للتسلية والتذاكر في اوقات التزجية. وهو بالضبط ما حرصت القصيدة الحديثة على تجنبه ورفضه. كانت القصيدة الحديثة تريد الخروج من المتحف حتى لو ضحت بسلطانها وسلاحها، تماشياً مع الحديث عن سلاح حزب الله اليوم. ضحت بسلاح النظم الذي يجعل من قارضه اعلى كعباً من الناثر وارادت ان تخرج من المتحف والإطار وسهرات الجنرالات في الفن والثقافة والسياسة إلى الشارع والبيت والعالم الأوسع. لكن مزاج الشعراء سرعان ما يجعلهم مرة أخرى يستسيغون الإقامة في المتحف، فهناك الجو مكيف والرفقة مبهجة، والنساء جميلات والرجال مثيرين.

هل من افق لقصيدة النثر؟

ازعم انها يجب ان تخرج من المتحف لترى ان كان ثمة افق ام لا. لا افق في المتاحف، على الأقل للأحياء من الشعراء. لكن الناظر اليوم إلى هذا العالم العربي الممتد على رقعتي الدم والفوضى، والواقف

عند تخوم مستقبله الكارثي يدرك ان لا خلاص لهذا العالم إلا بالشعر. بالشعر الذي ربما يحتاج ان نعيد النظر في قوالبه مرة أخرى، فلقصيدة النثر قوالبها التي بحث عنها طويلاً، والتي يحدس بها كل الشعراء الذين يقترفون هذه المعصية. لكن الاهم من ذلك، ان الشعاب الذي يمكن ان تشقها القصيدة اليوم في غابة الجنون التي نعيش فيها، ليست متيسرة للسياسة ولا للمنطق نفسه. يمكنني ان اكتب ما يلي:

الموت استر،

ذلك ان الجرح المميت يعريني.

امام العيون الفاحصة التي تفترسني

يجدر بي ان اغتسل بدمي.

هذا ما كانت لتقوله جريحة عراقية وهي تعاين عريها امام كاميرات التلفزيونات لو تسنى لها ان تمسك القلم وتكتب شيئاً ما. وهذا بالضبط ما لا يستطيع المنطق الرياضي ان يحيط به. ذلك المنطق الذي يسند السياسة والأفكار والفلسفات. وحده الشعر قادر ان يقول ما لا يخطر بداهة للسان.